

وكذلك - لعمر الحق - كان أبو الحسن، فإنه لمن الراشدين الموفقين الذين أدبوا الأمانة، ونصحوا في ورسوله وللمسلمين، وعاشوا في، وما توا في سبيل الله، ولم تأخذهم الدنيا ببريقها الخادع، وسرابها اللامع، وما كان ابن أبي طالب بغرّ يجهل أفانين السياسة، ولا بنكس يضعف عن تحمل التبعات، ولو شاء لكان ملاحاً جباراً يبطش بأهل عداوته، ويتلطف لأهله وخاصته، ولكنه أثر الله، وابتغى ما عنده، فكان لدينه وأمته، ولم يكن لمملكه ودولته. وهذا ضرار المذنب يصفه في مجلس معاوية فيقول "كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً. يتفجر العالم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس من قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن مع تقريبه إيانا، وقربه منا، لا نكاد نكلمه لهيبته، ولا نبتدئه لعظمته، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوى في باطله، ولا يئس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثّل في محرابه، قابضاً على لحيته، يتململ تلملم السليم، ويبكى بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا، إليك عني، غرّبي غيري، إلى تعرضت؟ أم إلى تشوقت؟ هيهات.. هيهات! قد باينت ثلاثاً لارجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك حقير، وخطبك يسير! آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق".

وإن معاوية لسمع هذا الوصف فيبكي، حتى تبطل لحيته بدموعه، ويقول: رحم الله أبا الحسين، فلقد كان كذلك، فكيف حزنك عليه بإضرار؟ قال: حزن من ذبح واحداً في حجرها! فسلام الله ورحمته وبركاته على هذه الروح الطاهرة، سلام عليها في عليين، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا؟